

المثلث الأوديب في الرواية الجزائرية الحديثة

مقاربة في التحليل النفسي

د. فتحي بوخالفة

جامعة المسيلة

تلجأ العديد من الدراسات النفسية، إلى تحديد نواة الصراع بين أقطاب ثلاثة: الأب، الأم، الابن، الذين يشكلون أطرافاً حقيقية لتطوير الصراع. ويطلق على هذا الثالوث اسم: الصراع الأوديب¹. وفي جميع الحالات، فإن الهدف الأساسي من وراء هذا الصراع، هو تأكيد تفوق طرف على الطرفين الآخرين.

وإن معالجة إشكالية هذا الصراع، وتقصي أبعاده النفسية، إنما تتم من خلال الاختصار فقط، على العلاقة القائمة بين الأب والابن. وذلك وفق ما تقتضيه طبيعة النصوص الروائية المقترحة للدراسة.

تتبنى مسألة المنازعة، بين الوجود والوجوب، على تقصي طبيعة الصراع القائمة بين الأب والابن، من خلال محاولة الابن منافسة أبيه وحذفه من الوجود. فإذا كان الوجود حقيقة ماثلة للعيان يمثلها الأب بسلطته الذكورية، فإن هناك سلطة ذكورية ثانوية ترغب في الظهور، على حساب السلطة الرئيسية، وتأكيد وجودها على أنقاضها، وتسمى بمنازعة الوجود، بمعنى ما يجب أن يكون مكان السلطة الأولى. حيث يمكن اختصار الصراع في هذه الحال، إلى ثنائية أساسية تتمثل في ثنائية: التعلق والتنزيم.

حيث يمثل الأب الطرف الأول بقوته الهرقلية العملاقة، المستبدة بالوجود الذي حوله. في حين يؤسس الابن، الطرف الثاني لبقية العلاقة، حيث ينشأ الصراع بين الاثنين في جو تشمله السياقات النفسية، التي تعمل على تطوير علاقة الصراع.

تضعنا رواية "ألف و عام من الحنين"، أمام نموذج تمويهي لاشتغال الصراع الأوديب. حيث لا يقوم الصراع في هذه الحال على القانون الأساسي لعقدة أوديب، كما هو معروف، إنما يتجاوز هذا القانون، إلى نمط آخر من صياغة عقدة أوديب يقوم على مبدأ الانتقام من الأب بالعلاقة الجنسية مع أعدائه. « ... وذات يوم غافلت كلثوم مسعودة التي كانت منشغلة بنسج كفن الحاكم بجذوتها، فدخلت غرفة محمد، وقد كان هذا منشغلاً

¹-أنظر: د/ عبد المنعم الحفني، الموسوعة النفسية الجنسية. ص: 28/27.

بتلقين درس في الغناء البلدي لطيوهره البرازيلية وقالت له: جئت لأنام معك حقا هذه المرة وعلى سرير حقيقي. واعتذر محمد لطيوهره عن ضرورة التوقف عن درسه، ووضع حجابا محتشما على الأقفاص كلها حتى لا يصدم أحاسيس حيواناته. ودون أن يقول شيئا، اقترب من كلثوم، وخلع ثيابها ببطء، وتخلص من سرواله الصوفي الأسود الذي يلتصق بفخذه ومن نعليه الأبيضين، واستلقى جنبا لجنب مع صغرى بنتي الحاكم بندر شاه. وخاضا معا في صمت كامل، ولأول مرة -على الرغم من الأقاويل التي نسجت حولهما-، عباب الأمواج الرائع. ولم يخلفا وراءهما ذلك العدد الهائل من الأحكام المسبقة، والكتل من المحرمات فحسب، بل خلفا أيضا مهوي العذاب السحيق. وغرق كل منهما في الآخر عبر رياح الرمال وعواصف الثلج، وعبر المستنقعات حيث يجرف الدم والبذار طينة الرغبة. وعندما عادت كلثوم إلى نفسها، أدركت أنها أخذت تأرها من والدها الذي ظل دائما بعيد المنال. فلقد اشتط في غروره إلى حد أنه أرسل شقيقتها لتعلم الرقص الكلاسيكي وتركها هي تتعلم الطرز «(1).

تتأسس الحياة النفسية العصابية، لشخصية كلثوم، على خاصية أساسية، تتمثل في الرغبة في التخلص من الأب بطريقتها الخاصة. إلا أن عملية التخلص لم تكن بطريقة "أوديب"، المتمثلة في القتل الفعلي للأب؛ وإنما كانت في السعي إلى الخلاص من سيطرته الذكورية، نتيجة فعل التمييز الذي قام به بينها وبين أختها. تتجلى أعراض العصاب في النموذج، من خلال تكريس أهمية إلغاء السلطة الذكورية للأب، وإبعاد وصايته الروحية والأدبية، بتهميش دوره والتحرر في مجال السلوك الاجتماعي.

والواقع أن الحاكم "بندر شاه"، عندما بسط سيطرته على مجتمع المنامة، باعتباره حاكما للمدينة، كان يبسط قوته الهرقلية على ذلك المجتمع، ويتأسس كعلاق فعلي أمام أبناء المنامة.

ولم يكن التذمر يشمل سكان المنامة فحسب من حاكمهم؛ إنما تجاوز الأمر ذلك ليتعداه إلى أهل بيته أيضا، ممثلا في صغرى بنتيه. وعليه فإن ثنائية التعلق والتفرد، تنبني على طرفين أساسيين هما: بندر شاه الحاكم، وكلثوم صغرى بنتيه.

(1) - رشيد بوجدره: ألف وعام من الحنين - رواية - ترجمة مرزاق بقطاش. ص 51/52.

إن منازعة الوجود والوجود، تتأكد من منظور العصاب الأوديبى، في محاولة إزاحة دور الأب، وحذفه من الوجود؛ أو على الأقل تجاهل وجوده نهائياً. لذلك فإن كلثوم وهي تقيم تلك العلاقة مع "محمد عديم اللقب" كانت تسعى إلى إيجاد بديل نفسي يقهر سيطرة الأب، ويلبي حاجتها في التخلص منه، حيث لم يكن فعل الممارسة الجنسية فعلاً في حد ذاته بقدر ما هو عمل رمزي لحاجات دفينية في اللاشعور.

يثبت السياق الروائي، أن أسرة عديم اللقب، هي الأسرة التي تتسم بشيء من الوعي، لذلك قادت المعارضة العلنية ضد سلطة الحاكم "بندر شاه". وإن كانت هذه السلطة تجسد المعطيات الأبوية وسيطرة الأب على الأسرة في المجتمع الذكوري. فإن هذه السيطرة ليست مشروطة بالاستمرار الكلي والدائم. إذ السيطرة الأبوية غالباً ما تحذو حذو الممارسة الاستبدادية، فتجعل من الممارسة السلطوية حقاً مشروعاً بالنسبة لها على من هم تابعون لها، لذلك فإن سلطة الحاكم "بندر شاه"، كانت في واقعيتها تماثل إلى حد بعيد سلطة الأب على أسرته، إذا ما أمكن اعتبار مجتمع المنامة أسرة. لذلك فلا ريب في قيام معارضة اجتماعية تهدف إلى نقد النظام القائم، وتبيان سلبياته.

ولم تكن كلثوم بمنأى عن مثل هذا النوع من المعارضة؛ فهي وإن تسعى إلى حذف دور الأب، فإنها بذلك تسعى إلى ما يجب أن تراه يكون من نقد الوجود، الممثل للسلطة الأبوية، وكأن ميزة التقزم في نظرها، كانت تمثل عقدة نقص فعلية، استدعت الحاجات النفسية إلى استكمالها وفق ممارسة الجنس.

إن الثالوث الأوديبى، يمكن أن يشتغل وفق قانونه الخاص، إذا ما استكمل قواعده الأساسية، التي تحدد قانونه العام، متمثلة في قتل الأب، واستباحة المحارم. إلا أن الطابع الرمزي لهذا الثالوث يستند في قواعده حسب الأنموذج، إلى صورة إبعاد الأب وتجاهل دوره وجودياً، والتحرر في السلوك، ثم إقامة علاقة محظورة مع ألد أعدائه. وفي هذه الحال لن تسلم كلثوم، من حالة العصاب الأوديبى، من حيث أنها يمكن أن تنقل دور أوديب بطريقة رمزية، من خلال إلغاء الأب، والخروج عن دائرة سلطته، بإقامة تلك العلاقة المحظورة.

وإن السياق الروائي، لا يستند إلى مبررات فعلية، متعلقة بتبرير عقدة الشعور بالذنب من منطلق أن القاريء، لا يجد تلك المبررات الموضوعية المتعلقة بهذه العقدة، باستثناء تبرير السلوك في حد ذاته، والجزء من جانب آخر.

إن تبرير السلوك، وظيفة سردية قامت بها كلثوم تجسدت في محاولة إيجاد الصيغة التبريرية، التي من شأنها إقامة علاقة التآلف بين الباطن والظاهر. حيث أن النواة الأولى لإيجاد السلوك العيني أو الظاهري، تأسست في الداخل. والداخل في هذه الحال، هو من يوجد قابلية تجسيد السلوك واقعياً. وإن كلثوم هنا لم تكن بعد قد تخلصت من عقدة النقص التي صارت تعانيها إزاء أبيها، كما أن فكرة حذف الأب من الوجود صارت فكرة ملحة. بالمقابل يمتلك محمد عديم اللقب، شعور أوديب، يتأسس في ظل أوديب على وجه التحديد، وليس في صورته الفعلية. إذ ينبني هذا الشعور وفق منطق تحقيق الرغبات المكبوتة في اللاشعور، إزاء الأنثى.

وقد أشار السياق في عمومياته، إلى العفوية المطلقة، في مقارنة الفعل الجنسي؛ حيث أن الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من لقاء عادي بين ذكر وأنثى. إلا أن الأبعاد النفسية للفعل في حد ذاته، كانت متأسدة وفق هدف تقويض النمطية الجاهزة، ممثلة في السيطرة الأبوية، والتدخل في اختيار المصير بطريقة تمييزية. (فقد اشتط في غروره إلى حد أنه أرسل شقيقتها لتعلم الرقص الكلاسيكي وتركها هي تتعلم الطرز).

إن وجود الجزاء في السياق الروائي، يمثل الحالة المقابلة للفعل، فإذا كان أوديب قتل أباه، وتزوج أمه، فإن العقاب الذي أحيط به بعد ذلك، يرضي الجميع من منطلق أن قتل الأب واستباحة محارمه، ليس بشيء يقبله المجتمع، وهي القاعدة ذاتها التي تنطبق على محمد عديم اللقب، حيث يمكن مناقشة الموضوع، بين محمد وأمّه مسعودة عديمة اللقب، بعد مقارفة ابنها للفعل الجنسي مع كلثوم صغرى بنتي الحاكم بندر شاه.

تميل مسعودة عديمة اللقب، إلى اقتناص دور الأم (الكرونوسية)، التي تحل محل الأب في اتهام أبنائها أو خصائهم. وإن هذا الدور ما كان لمسعودة الأم، أن تتبناه إلا بعد حدوث الفعل المناويء لأحاسيسها ومشاعرها من لدن ابنها محمد. « وفي الوقت المحدد الذي فقدت فيه كلثوم زرها الوردي المزهر ذا البتلات المتعدد، كانت مسعودة عديمة اللقب منهمة في نسيجها، فتنهدت وقالت لصغرى توائمها: لقد حدث شيء مؤلم في مكان ما من العالم الفسيح. وكانت أبعد ما تكون عن التفكير في أن ذلك الحدث قد وقع في العرين حيث يربي ابنها أجمل طيور الكون. على أن بنتها لم تفهم معنى كلامها فأضافت بعد صمت طويل وهي تواصل نسج جزوتها: لا تنسي يا سميكة! الرجال يرون أن المرأة مجرد ثقب، هو بمثابة ملجأ لهم عندما يصابون بالدوار! ثم صفقت مغازلها

وأُسِّرت إلى غرفة محمد حيث اطلعت على هول الخطب. لم تقل كلمة، بل دخلت بستانها وقضمت بأسنانها كل المزروعات قضمًا فظيماً. لم يتبادل محمد ووالدته الكلام مدة تفوق السنة. انتظر كل منهما أن يقوم الآخر بالبادرة ولكن أحداً منهما لم يرفع إصبعه «(1)». يطرح الأنموذج مثلاً لعقاب واقعي، يتمثل في صدور الأم عن ابنها، نتيجة معرفتها العينية لما حدث. والواقع إن الفعل المخل -حسب الأم- في حد ذاته لم يكن شيئاً ذا بال في نظرها، فالمسألة لا تخص الفعل، إنما خصت مع من مورس هذا الفعل!... وعلى امتداد السياق الروائي بشكل عام، يستطيع القارئ، أن يفهم جيداً مدى الحساسية القائمة بين الحاكم 'بندر شاه'، وعائلة 'عديم اللقب' بوجه عام. لذلك فكلثوم ابنة الحاكم هي في نظر مسعودة الحاكم ذاته لا تختلف عنه في شيء، لتتحول القضية هنا إلى مبدأ فعلي. إن صورة الأم الكرونوسية، هي بالتأكيد صورة الأب في ممارسة سلطته على الأبناء وتهديدهم بالخصاء وهو الدور الفعلي الذي تقلدته مسعودة في تعاملها مع ابنها نتيجة ارتكابه للفعل الشائن -في رأيها- مع ابنة الحاكم. وإن هذه الصورة تكتمل عندما تستعير الأم الأنياب الأبوية لتتشبها في شعور كل من يتمرد على سلطتها، والواقع أن تلك الأنياب لم تكن متطورة في عهدها الأولى، إذا كان من الممكن الإقرار، بأنها لم توجد أصلاً. حيث أن الملابس القائمة للواقع باستطاعتها إحداث تلك الأنياب لأداء وظيفة العقاب؛ إذ يمكن التسليم أنه نتيجة لطبيعة السلطة الممنوحة للأب أو الأم على حد سواء، تنشأ الحاجة إلى مثل تلك الأنياب.

يعد الأنموذج المقدم من الناحية الفنية، تكملة للأنموذج الأول. فإذا كان الأنموذج الأول يجسد قوة "الهدا" الجنسي، فإن الثاني يؤكد مرحلة الجراء المتمثلة في العقاب، الذي يرضي المجتمع. وإن كان الأنموذج الأول قائماً على الميولات الأوديبية في حب الأنتى، فإنه في الآن نفسه يؤكد قانون اشتغال اللذة، حيث أنه في « طور فورة، "الهدا" تتهاوى الحواجز كافة وتشمل كل مقاومة، شعورية كانت أم لاشعورية؛ وإنما بعد أن يصيب "الهدا" قدراً من الإشباع وينفس مرجه عن قدر من ضغطه، يتضاءل اندفاعه وتعاود الحواجز والسدود ظهورها. وبمعنى من المعاني، فإن السلسلة هنا متتامة. فكل تناقص في الكم المخزون من طاقة "الهدا" يقابله ويكافئه تزايد في كم المقاومة، تماماً كما أن

(1) - المصدر السابق: ص 52.

تزايد كم المقاومة، في الحالات التي يتضخم فيها "الأنا الأعلى"، لابد أن يستتبعه ضمور في طاقة "هذا" «(1). وهي المعطيات ذاتها التي توجد في المثال الأول. حيث تبرز سيطرة "هذا" بشكل واضح أمام تضاعل سلطة "الأنا الأعلى"، والتي تبرز مباشرة بعد تضاعل اندفاع هذا وعودة ظهور الحواجز ثانية.

وفي هذه الحال يمكن طرح السؤال التالي: هل كانت كلثوم حقا واقعة تحت سيطرة هذا؟!... وهل كان محمد يعي نتيجة السلوك الذي جارى به كلثوم؟!...؟

يحيل السياق الروائي، على مرجعية أساسية، تتعلق باشتغال "هذا"، تتمثل هذه المرجعية في المقدمات الأولى لبداية عمل اللذة الجنسية(2). حيث أن كلثوما في هذه الحال، لم تكن تتجرأ إطلاقا على دخول بيت عائلة "عديم اللقب"، إلا بمغافلة مسعودة "أم محمد"، نتيجة للعلاقة غير المنسجمة بين هذه الأسرة والحاكم "بندر شاه" والد كلثوم. وإن مسألة هذا هنا من شأنها أن تتأسس وفق معطيات، تتحدد في الغرض من اشتغاله. وبحكم أن الأمر يرتبط بالحد من سيطرة الأب -على الأقل- أو كسر هيمنته كطموح، فإن هذا في هذه الحال، يكون موجها وفق هذا المنطق.

أما محمد فبحكم شخصيته الجذابة في نظر كلثوم، فإن هذه الأخيرة لا تبدو بالنسبة إليه إلا امرأة، حيث لا تتجاوز حدود الأنثى -مع الاحتفاظ بموقف محمد إزاء سلطة حاكم المنامة- وحدود الأنثى لا تتجاوز أكثر من إعلان الرغبة في ممارسة الفعل. حيث يمكن الإقرار بأن دوافع اشتغال هذا كانت متوفرة بمجرد وقوف كلثوم أمام محمد في غرفة واحدة. فيتأسس عامل الاشتغال وفق تلك المقابلة.

وتعرض رواية "الإنكار"، أنموذجا لثنائية التعلق والتقرم، وفق ما تقتضيه السيطرة أو الوصاية الأبوية على الأسرة. « إن سي زبير ليعلم بأن الله معه ولذلك لفظ بالجملة التي تتلخص فيها رغبته في التزوج بامرأة ثانية بكل هدوء وسكينة. وأما يمّا فليس معها شيء. إن إلهها هي إله بين بين، يرضى بالعدالة الهامشية! وهكذا فقد قضى

(1) - جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية. ص: 313.

(2) - أنظر المصدر السابق: الرواية، ص: 51.

الأمر. يَمَا لم يخدمها الأمر وهي تعرف أن عليها التمسك بالكرامة والتعود على فكرة الفراق والهجر...»(1).

تتعرض في المثال صورة الأب المزواج، الذي لا يقف عند حدود حليلة واحدة، بل يتجاوز هذه الحليلة إلى سواها من النساء. والحقيقة إن هذه الصورة تتطور بتطور المداخل، التي تعكس فيما بعد تطور سيطرة الأب المطلقة على الأسرة، لتصير هذه الصورة مبدأ فعليا تقوم عليه تلك الوصاية.

إن قوة الأب التي يظهرها السياق في الرواية، تنبع من رغبة ذلك الأب في كشف تلك القوة لغيره، ولم تكن مسألة إيداء الرغبة في الزواج ثانية، أمام الزوجة الأولى إلا مظهرا من مظاهر تلك القوة. لذلك فإن هذه القوة تمثل امتيازاً حقيقياً بالنسبة للأب لا يرغب في التنازل عليه؛ حيث يقف الأب في هذه الحال، أمام منازعة حقيقية تنحصر في ثنائية الوجود والوجود. الوجود الذي يخيفه من الأسرة، التي تهدده في ذكوره؛ والوجود ما يجب أن يفعله كي يضمن سيطرته على تلك الأسرة.

إن رهاب الأسرة من لدن الأب، يعكس نوعاً من العلاقة العدوانية، القائمة بينه وبين أسرته؛ حيث أن الرغبة في الزواج ثانية لم تكن وليدة فراغ بقدر ما كانت وليدة عوامل لا شعورية، تتجسد في تأصل فكرة التطاول على الزوجة، الأولى والتي تمتد فيما بعد إلى الأسرة بأكملها.

ويمكن للمسألة في هذه الحال، أن تأخذ أبعادها النفسية، عند تحليل قضية التطاول. من منطلق أن هذه القضية ترتبط ارتباطاً فعلياً بعقدة الخفاء. حيث يكون الأب هنا يعيش حالة من الرهاب إزاء الأسرة - كما سلف القول - هذه الحالة ناتجة عن خوفه من فقدان مكانته السلطوية. حيث أن خفاء الآخرين له، يمثل تحديداً لسلطته التي بقي معتزلاً بها.

والواقع إن هذه السلطة، كانت نتيجة منظومات اجتماعية محددة، كرسها التقاليد السائدة؛ حيث أن هذه التقاليد من شأنها إعطاء المكانة الحقيقية للرجل على حساب المرأة؛ فيكون القاريء إزاء معطيات مجتمع ذكوري حقيقية، لا يعترف إلا بالذكر رمزا فعالاً للسلطة والسيطرة.

(1) - رشيد بوجدرية: الإنكار - رواية - ترجمة صالح القرمادي. ص: 36.

إن عقدة الخصاء في علاقتها بالأب، تمثل بؤرة توتر حقيقية، على المستوى الشعوري. حيث يقوم الافتراض على جعل هذه العقدة عنصرا مضادا للهيبة الأبوية وبالتالي لذكورة الأب؛ حيث أنها إذا ما فقدت فقد معها الأب إمكانية السيطرة. وعليه فإن هذه العلاقة تنبني على شيء من الحساسية نتيجة أهمية الموقف المرتبط بتأكيد السيطرة الفعلية. ومن الناحية المنطقية يبدو الموقف على درجة من الفهم المرتبط أساسا بضرورة تجاوز القائم (الزوجة الأولى)، إلى البديل (التفكير في الزواج ثانية). إذ لم يكن هذا البديل يمارس دوره في الحياة النفسية للأب إلا وفق ما يمليه منطق هذا الأخير في مواجهة عقدة الخصاء، وتأكيد الوصاية.

وفي الوقت الذي تتقلد فيه الأم دور المرأة الطيبة، الوديدة. يقوم الأب بنقل دوره الأسطوري، في محاولة جادة لتأكيد سلطته الفعلية على الأسرة، حتى لو تعلق الأمر بتجاوزات يمقتها الذوق الأخلاقي العام. « لقد كانت في شجار مع الله ولكنها كانت تسمح لسي زبير بركوب البقرات الجامحة. كانت على علم بوجود عشيقاته، ولكنها كانت تعتبر خيانة الرجل لزوجته أمرا طبيعيا ولم يكن ليخطر لها على بال و لو لحظة واحدة من الزمن أن عكس القضية أمر ممكن أيضا فكانت في الأثناء تفقد كل يوم نصيبا من لطفها ومن ثباتها على صبرها واحتمالها »(1).

تقف الأم متقلدة دور الأم الفالوسية، التي لا تميل إلى أي فعل من أفعال الشر أو الانتقام. إن هذا الموقف يمثل موقف ضعف حقيقي، إذا ما قيس بالسلطة الفعلية للأب. وعلى العموم يمكن الذهاب بهذا الموقف إلى درجة السلبية الشعورية، من منطلق السكوت واللجوء إلى التسليم بالأمر الواقع.

يعرض السياق أنموذجا للأم التي تتعامل بمنطقتين متوازيتين. يتعلق المنطق الأول بموقفها من القدر. ويتعلق الثاني بموقفها من واقعها.

والحياة الشعورية للأم، هي التي ستحدد فيما بعد طبيعة سلوكها إزاء ما يعرض لها في حياتها الجديدة، التي مثلت منعرجا جديدا في نظرها.

ينبني السياق على خصوصيات هامة، تتعلق أساسا بجعل الأم نواتا فعلية لتحريك الحدث الدرامي في مخيلة الراوي. إن هذه الحركية باستطاعتها التأسيس لمسألة المنازعة

(1) - المصدر السابق: ص 42.

بين الوجود والوجوب وفق منطقتين متناقضتين تتجاذبهما شخصيتان أساسيتان. الأم والأب. يرتبط منطق الأم بأهمية إقرار وجود قائم، يمكنها من البقاء سيدة مستأثرة بزوجها باسطة وصايتها على أسرتها. في حين يرتبط منطق الأب بإقرار ما يجب أن يكون بغية تأكيد سيطرته المطلقة.

إن خصوصية الوجود والوجوب، تتأسس وفق كونها تمثل قطبية ثنائية، يبدو النزاع فيها قائما على أساس تأكيد القائم من جانب وتجاوزه من جانب آخر.

وفي واقع الأمر، يبدو الصراع هنا على نسق من العصاب الأوديبى المعكوس في مضمونه. حيث يتعلق الموضوع بعدم استحضار عقدة أوديب كما هي معروفة في علم النفس التحليلي. إنما يمكن تجاوز هذا الاستحضار وفق نسق عصابي يرتبط بمحاولة تجاوز عقدة الخشاء وركن الأنثى جانبا. وإن الصراع في هذه الحال، لا يبدو صراعا معلنا، إلا من طرف الأب، الذي سعى إلى تأكيد انتمائه الذكوري، وفق ما يخوله له دوره بتقلد قوته الهرقلية التي منحها إياه التقليد الاجتماعي القائم. وإن مظاهر هذه القوة، تبدو في وجود العشيقات من جهة، وتسليم الأم بخيانة الزوج من جهة ثانية. حيث أن العصاب الأوديبى لا يبدو في تعلق الذكر بالأنثى، بقدر ما يبدو في تطاول الذكر على أنثاه. إذ لا يمكن الحديث عن العصاب الأوديبى، وإنما عن ثنائية التعملق والتقرم.

يقيم السياق مقابلة نوعية لصراع هاديء بين الرجل والمرأة. وإن الهدوء المقصود يبدو في عمومته، في كون الصراع غير معلن من جانب المرأة (الأم). وإذا كانت هذه الأخيرة تتحلّى بدور الأم الهادئة الوديعة، التي لا تميل إلى الفعل المضاد، فإنه على مستوى البنية النفسية، لا يقر السياق بذلك، حيث ينتهي بالعبرة التالية: (فكانت في الأثناء تفقد كل يوم نصيبا من لطفها ومن ثباتها على صبرها واحتمالها).

وإن معالجة المستوى النفسي كبنية، يسمح بقراءة الجزئيات المتعلقة بتكوين هذه البنية، من منطلق أن هذه الأخيرة لا تستطيع تأكيد تماسكها وتحديد صورتها الخارجية في شكل سلوكيات، إلا وفق تآلف هذه الجزئيات فيما بينها. والواقع أن الجانب النفسي للأمر واقع تحت تأثير عوامل خارجية، ترتبط بمدى قدرتها على إقناعها بضرورة التسليم بالأمر الواقع، من حيث أن سيادة تقاليد المجتمع الذكوري تبدو جلية في السياق، فإن العرف العام، يعطي الأحقية للرجل في السيطرة والوصاية، حتى لو تعلق الأمر بوجود عشيقات كبدايل عن الزوجة الأولى. وهذا الأمر الذي يفسر الخيانة التي قبلت بها الأم واعتبرتها أمرا عاديا.

إلا أنه يمكن تفسير قبول هذه الخيانة من الناحية الخارجية فقط. حيث أن السياق يتجاوز حدود الواقع الملموس إلى الجوانب الشعورية المرتبطة أساسا بوعي الأم. حيث تبدو حالة اللااستقرار المجسدة في فقدان توازنها النفسي.

وبالمقابل يسعى الأب من جديد إلى تحريك المثلث الأوديبي، وفق منطق الصراع المتبادل بينه وبين زوجته الأولى والأبناء. فتتأكد الهوية بينه وبين الأسرة، وفق منطق العلاقة التي صنعها الصراع. « وبعد طلاق زوجته ووضعها أمام أمر مقضي هو وجوب سلوكاته الدائمة عليها كان يضعنا في نفس الوقت نحن أبناءه في وضع لا طاقة لنا به. فيقيم بيننا وبينه حاجزا من العداوة كان يتفنن في تدعيمه كل يوم فكان يصيبنا من ذلك فزع وفرق شديدا فنهرع ونهوي في ذلك الصراع العنيد الذي كانت قواعد اللعب فيه لا تكشف أبدا: صراع البحث عن الأبوة الضائعة »(1).

إن المثلث الأوديبي، يتحدد في السياق، وفق ما تمليه العلاقة القائمة، بين الأب وبقية الأطراف المكونة لهذا الثالوث. وعندما تتأسس الأسرة كطرف مقابل في الصراع؛ فإن هذا التأسيس تمليه طبيعة السياق الروائي في معالجة الحالة النفسية، لأطراف الصراع الأوديبي. إن الأسرة تمثل طرفين أساسيين، يرتبطان بالأم والأبناء. ويبقى الأب المحرك الأساسي لدائرة الصراع القائمة في حدود المثلث.

إن المنازعة بين الوجود والوجود تجد وظيفتها الفنية في إطار المثلث الأوديبي بشكل نمطي؛ إذ لا يمكن تغيير مواطن الصراع وفق ما تمليه طبيعة العلاقات السائدة بين الأطراف الثلاثة. حيث أن النواة الفعلية لذلك الصراع تتجسد في محاولة الأب اجتياز عقدة الخشاء والتأكد من إثبات ذكورته. وإن تفسير ظاهرة التطاول على الأسرة. كان بدافع ما يعتمل في وعي الأب، من منطلق أن الذكورة التي تعني رمز السيطرة والوصاية في نظره، ينبغي أن يشبها الواقع. وعليه فإن الصراع القائم لم يكن وليد الفراغ بقدر ما كان وليد الوعي الشعوري لشخصية الأب.

يعمل المثلث الأوديبي وفق نمطية ثابتة، لا تمثل الميولات الفعلية للأنثى، بقدر ما تمثل الاستعلاء الكلي عليها. وعليه يمكن أن تتمثل منازعة الوجود والوجود، وفق رؤية الأطراف المتنازعة. فالأب يرغب في وضع جديد بزواجه من امرأة ثانية. والأم ترغب

(1) - المصدر السابق: ص 43.

في إقرار الوجود القائم، بالاحتفاظ بزوجها الحالي والاستئثار به. والأبناء محصلة هذا التناظر القائم. الذي يقود إلى صراع ثلاثي الأطراف.

إن هذا الأنموذج يعد محصلة، الأنموذج الذي سبقه، بحيث يمثل نتيجة لمقدمات سبق أن تعرض لها الأنموذج السابق. وإن هذه النتيجة تعكس قيمة الوصاية الأبوية على الأسرة، التي تمنحها معطيات المجتمع الذكوري للأب. مع أن الأمر يبدو منطقيا بالنسبة لهذا الأخير الذي يرى في تحديد نفوذه قضاء على مكانته، وهو ما يعبر عنه بمصطلح التحليل النفسي بعقدة الخصاء التي حاول هذا الأخير تجاوزها.

إن السياق يعكس واقعا آخر هو نقيض الواقع الذي تعيشه الزوجة الأولى. حيث يمكن في هذه الحال مناقشة الحالة النفسية للأب على مستويين. يتمثل المستوى الأول في تلك الرابطة الشعورية، التي بين الأب وزوجته، والتي سبق مناقشتها. في حين يتمثل المستوى الثاني، في مسألة التواضع للأنثى من جديد، وهو عكس المستوى الأول حيث أن الأب في الوقت الذي كان يفكر فيه في التخلي عن زوجته الأولى، كان بالمقابل يفكر في الزواج من ثانية؛ إذ أن الصلة الشعورية بالمرأة لا تزال قائمة. مع أن ثنائية التعلق والتقدم، تبدو على أشدها، حين يبرز الأب تطاوله الكلي على الأنثى في المستوى الأول. ثم يفكر في ربط الصلة من جديد في المستوى الثاني، على أن يبق هذا التعلق قائما بالنسبة للأب في كلا المستويين.

المصادر و المراجع:

1- الروايات:

- رشيد بوجدره : ألف و عام من الحنين - رواية - ترجمة مرزاق بقطاش، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .

- رشيد بوجدره: الإنكار - رواية - ترجمة صالح القرمادي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .

2- المراجع:

- عبد المنعم الحفني: الموسوعة النفسية الجنسية، مكتبة مدبولي ، القاهرة، مصر .

- جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان .